

بيان من السيد كويشيرو ماتسورا المدير العام لليونسكو
بمناسبة يوم المياه العالمي 2006: "الماء والثقافة"

22 آذار/مارس 2006

في عام 1993، أعلنت الجمعية العامة للأمم المتحدة يوم 22 آذار/مارس "يوم المياه العالمي" للاحتفال في شتى أنحاء العالم بهذا المورد الحيوي. والموضوع الذي وقع عليه الاختيار ليوم المياه العالمي عام 2006 هو "الماء والثقافة"، وهو موضوع يكتسي أهمية خاصة بالنسبة لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو) التي سنتولى الدور القيادي في الأنشطة المتعلقة بالاحتفال في هذه السنة.

إن موضوع "الماء والثقافة" له صدى متناغم مع رؤية اليونسكو لإدارة الموارد المائية والتصرف الحكيم إزاءها. وفي سبيل إيجاد الحلول المستدامة التي تسهم في تحقيق العدل والسلام والتنمية ينبغي لهذه الإدارة ولهذا التصرف الحكيم في مجال المياه مراعاة التنوع الثقافي والتنوع البيولوجي. ولهذا السبب، تعتقد اليونسكو أن البعد الثقافي للمياه يستحق المزيد من التمحيص بما يمكن من تفهم أكبر لامتداداته المتعددة.

في الأزمنة الحديثة، تميل نهج إدارة الموارد المائية إلى الاعتماد الطاغي على الوسائل التكنولوجية في محاولة حل المشكلات العالمية العاجلة في مجال المياه. واليوم يتبين من ثاني "تقرير عن تنمية الموارد المائية في العالم" أن 1.1 مليار من البشر لا ينعمون بمياه الشرب المأمونة وأن 2.6 مليار من البشر يفتقرون إلى أبسط مرافق الإصحاح. وتتسبب الكوارث المرتبطة بالمياه مثل الفيضانات والجفاف في خسائر في الأرواح أكثر من أية كوارث طبيعية غيرها، كما أن الأمراض التي تنقلها المياه تؤدي بحياة آلاف من الأطفال كل يوم. ولكن التكنولوجيا وحدها لن تقودنا إلى الحلول المستدامة.

ولئن كان العلم والتكنولوجيا من الوسائل الجوهرية لفهم الدورة المائية واستخدامها، فهما يتطوران بحسب سياقات بيئية محددة، واستجابة لاحتياجات وطموحات الناس التي تتحدد وفقاً للعوامل الاجتماعية والثقافية. فالماء في واقع الأمر له وظائف ثقافية قوية. ولما كان الماء يطال كل جوانب حياة البشر، فإن كل جماعة بشرية خلقت لديها بنى اجتماعية وقواعد وممارسات لاستعمال المياه، مبنية على نظرتها إلى العالم وعلى مدوّنتها الأخلاقية. ونتيجة لذلك فإن الماء ثري بالمدلولات الثقافية وبالغزى الاجتماعي. وتعد إدارة المياه شأنًا ثقافيًا بقدر ما هو تقنيًا، ويدل على كيفية رؤية الناس والجماعات البشرية إلى علاقتهم بالطبيعة. فمن أزمان ما قبل التاريخ وحتى اليوم، كان تعامل البشر إزاء الماء يحدد إلى مدى كبير جدًا استدامة المجتمعات.

وغدت الكتل البشرية، بسبب تكاثرها ونموها، تؤثر بشكل متزايد على الدورة الهيدرولوجية وتغيّر من نوعيتها وكيفية توزيعها. بيد أن حجم المياه العذبة على الأرض، الذي يجب أن تتقاسمه كافة أشكال الحياة، يبقى بلا تغيير. وهذا الوضع يفرض على البشرية مسؤولية إعداد نظم سليمة أخلاقياً للتصرف الحكيم بالموارد المائية.

ولهذا الغرض، يجب علينا أن نتفهم بصورة أفضل التفاعلات المتشعبة بين المجتمعات والمياه والبيئة؛ والحقيقة أن إدارة المياه في حد ذاتها ينبغي فهمها على أنها عملية ثقافية. إن هذا المنظور يسند ويرشد عدداً من مبادرات اليونسكو وألوياتها الرئيسية، لا سيما تلك التي تستهدف زيادة المعرفة بالمياه وبالمنظم الإيكولوجية المتصلة بها، وتعزيز التنوع الثقافي والاعتراف بقيمة التراث المادي وغير المادي للبشرية، وتعزيز أخلاقيات العلوم والتكنولوجيا، والمساعدة على درء النزاعات على المياه وحلها.

ويتزايد الاعتراف بأنه من الضروري، لفهم وحفظ موارد طبيعية مثل المياه، تفهم الثقافات البشرية التي تحدد ملامح النظم الطبيعية وتتفاعل معها. وفي هذا الصدد، فإن الحاجة إلى الاعتراف بقيمة المعارف التقليدية تحقق مكاسب واضحة. وباعتماد إعلان اليونسكو العالمي بشأن التنوع الثقافي (2001)، برهن المجتمع الدولي عن التزامه "الاعتراف بساهمة المعارف التقليدية، لا سيما في مجال حماية البيئة وإدارة الموارد الطبيعية وتعزيز التآزر بين العلوم الحديثة والمعارف المحلية" (الفقرة 14 من خطة العمل لتنفيذ الإعلان).

إن المعارف التقليدية تنبهننا إلى واقع أن الماء ليس مجرد سلعة. فمنذ فجر البشرية كان الماء مصدر إلهام لنا، يبعث الحياة روحانياً ومادياً وفكرياً ووجدانياً. كما أن تشاطر وتطبيق المضامين الثرية التي تزر بها نظمنا المعرفية، بما فيها المعرف التقليدية ومعارف المجتمعات الأصلية، من الأمور التي يمكن أن تسهم إلى حد كبير في إيجاد الحلول لتحديات العصر في مجال المياه.

وتعد الصلة بين الثقافة والطبيعة هي المدخل العريض لفهم المرونة والإبداع والقدرة على التكيف في النظامين الاجتماعي والإيكولوجي معاً. ومن هذا المنظور فإن الاستعمال المستدام للمياه، ومن ثم المستقبل المستدام، يعتمد على العلاقة المتجانسة بين الماء والثقافة. وبناء على ذلك، فإن من الحيوي أن تكون إدارة المياه والتصرف الحكيم بها في مراعاة جدية للتقاليد الثقافية والممارسات الأصلية والقيم المجتمعية.

كويشيرو ماتسورا